وله واقعات عجيبة ببغداد حكاها أشياخنا، منها أنه كانت له بغلة حرون، ركبها يوماً، فدخلت به في درب لا تنفذ، وكان يوسف قصيراً مدوراً بعمامة كبيرة وثوب واسع الكمين، فجعل يضرب البغلة وهي تحتك بالحائط ولاتزول من مكانها، فقال: فَعَل الله بالغلام وصنع، كم أقول له: استعمل هذه البغلة تحت الرَّاوية حتى تلين آذانها، وهو لا يقبل. وهناك امرأة مُطِلَّةٌ من روزنة، فقالت له: يا فقيه، فذي ما تحمل دلو، فكيف تحمل راوية؟! فخجل، ونزل من عليها، وساقها بين يديه.

ومنها: أنه اجتاز يوماً بمحلة قَرَاح أبي الشَّحم، فنبحته كلابها، فقال: قبَّح الله كلاب هذه المحلَّة، فما أكثرها وأضراها! فقالت امرأة من طاقة: نعم، وكلهم اليوم غرباء.

ومنها أنه اجتاز على جماعة، فسلَّم عليهم، فلم ينصفوه، فقال لغلامه: ما ترى هؤلاء التيوس؟ فقال واحد منهم: الله يحفظك يا أبانا. ومن هذا شيء كثير.

السنة الرَّابعة والستون وخمس مئة

في المحرَّم ملك نورُ الدِّين محمود قلعة جَعْبر، خرج صاحبها ابنُ مالك العُقَيْلي يتصيَّد، فأخذه بنو كلب، وذهبوا به إلى نور الدين، فأحسن إليه وأكرمه، وقال: أنتَ عاجز عن حِفْظها، فاخترْ مهما شِئْتَ من الإقطاعات والبلاد. فامتنع، فأرسل إليها نور الدين فخر الدين مسعود ابن الزَّعفراني ومجد الدِّين ابن الدَّاية، فحاصراها، فلم يقدرا عليها، ثم إن صاحبها طلب من نور الدين سَرُوج وأعمالها ومالاً، فأعطاه وتسلمها. وهذه القلعة ما زالت في يد بني مالك من أيام السُّلْطان ملك شاه إلى هذه السنة، وبلغ نور الدين أنهم كان لهم رجال يقطعون الطريق.

وفي صفر خرج الفرنج من عَسْقلان والسَّاحل طالبين الدِّيار المِصْرية، فنزلوا [على][1] بِلْبِيْس، وأغاروا على الرِّيف، فقتلوا وأسروا، فأخرج شاور مَنْ كان بالقاهرة من الفرنج، وقَتَلَ البعض وهرب الباقون، وأمر شاور أهل مصر بأن ينتقلوا إلى

(١) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

القاهرة، وأحرق مِصر، وسار الفرنج [من][1] بِلبْيس، فنزلوا على القاهرة في تاسع صفر، وضايقوها، وضربوها بالمجانيق، فلم يجد شاور بُدًّا أن كاتب نورَ الدين بأمر العاضد، وكان الفرنج لما وصلوا إلى مصر في المرَّتين الأوليين اطَّلعوا على عوراتها، وطمعوا فيها، وعلم نور الدين، فاسترجع وخاف عليها، وجاءته كُتُبُ العاضد وشاور فقال نور الدين لأسد الدين: خُذِ العساكر وتوجَّه إليها، وقال لصلاح الدين: اخرج معه. فامتنع، وقال: يا مولانا ما يكفي ما لقينا من الشَّدائد! فقال: لابُدَّ من خروجك. فما أمكنه مخالفة نور الدين.

فساروا إلى مِصْر، وبلغ الفرنج، فرجعوا إلى السَّاحل، وقيل: إنَّ شاور أعطاهم مئة ألف دينار، وجاء أسد الدين فنزل على باب القاهرة، فاستدعاه العاضد إلى القَصْر، وخلع عليه في الإيوان خِلَع الوِزارة، وسُرَّ أهل مصر بوصوله.

وقيل: إنَّه لم يستدعه، وإنما بعث إليه بالخِلَع والأموال والإقامات وللأمراء الذين معه، وأقام مكانه وأربابُ الدَّولة يتردَّدون إلى خِدْمته كلَّ يوم، ولم يقدر شاور على منعهم لكثرة العساكر وكون العاضد مائلاً إلى أسد الدين، فكاتَبَ الفرنج، واستدعاهم، وقال: يكون مجيئكم إلى دمياط في البحر والبر. وبلغ أعيانَ دولة المِصْريين، فاجتمعوا عند أسد الدين، وقالوا: شاور [هو][1] فساد العباد والبلاد، وقد كاتَبَ الفرنج، وهو يكون سبب هلاك الإسلام.

ثم إنَّ شاور خاف لما تأخَّر وصول الفرنج، [فشرع][2] في عمل دعوة لأسد الدِّين والأُمراءِ ويقبضهم، فنهاه ابنه الكامل، وقال: واللهِ لئن لم تنته عن هذا الأمر لأعرِّفن أسد الدين. فقال له شاور: والله لئن لم أفعل هذا لنُقتلن كلنا. فقال: [له ابنه][1]: لأن نقتل والبلاد بيد المسلمين خيرٌ من أن نُقْتَلَ والبلاد بيد الفرنج.

وكان شاور قد شَرَطَ لأسد الدين ثُلُثَ البلاد، فأرسل [أسد الدين][1] يطلب منه المال، فجعل يتعلَّل ويماطل وينتظر وصولَ الفرنج إلى البلاد، فقتلوه، وسنذكره [في موضعه][1] إن شاء الله تعالى.

---

(١) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (ح): فعمل، والمثبت مابين حاصرتين من (م) و(ش).

ولما قُتِلَ بَعَثَ العاضد منشوراً بالوِزارة لأسد الدِّين بخطِّ الفاضل، وعليه بخطِّ العاضد ما صورته: هذا عهدٌ لم يعهد إلى وزيرٍ بمثله، فتقلَّد ما أراك الله أهلاً بحمله، وخُذْ كتابَ أمير المؤمنين بقوَّة، واسحَبْ ذيل الافتخار بأنِ اعْتَرف بخدمتك بيتُ النُّبوة، والتزمْ حقَّ الأمانة تجدْ إلى الفوز سبيلاً ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾[النحل: ٩١].

وأرسل العاضد نسخةَ الأَيمان إلى أسد الدين، وحَلَفَ كلٌّ واحدٍ منهما لصاحبه على الوفاء والطَّاعة والصَّفاء، فتصرَّف أسدُ الدين شهرين ومات، ولما احْتُضر أوصى إلى ابنِ أخيه صلاح الدين، فاختلف عليه جماعةٌ من الأُمراء عقيب وفاةِ أسد الدين، وبلغ نورَ الدين اتِّفاقُ الأمراء على صلاح الدين، فقال له الملك المُعَظَّم تورانشاه بن أيوب، وكان أسنَّ من صلاح الدِّين: يا مولانا أريد أن أسير إلى أخي. فقال له: إنْ كنتَ تسير على مِصْر وترى يوسف أخاك بعين أنه كان يقف في خدمتك وأنت قاعد فلا تسير، فإنك تفسد العباد والبلاد، فتحوجني إلى عقوبتك بما تستحقه، وإن كنتَ تسير إليه، وترى أنَّه قائم مقامي، وتخدمه كما تخدمني، وإلا فلا تذهب إليه. فقال: يا مولانا سوف يبلغك ما أفعل من الخدمة والطَّاعة. وسار إلى مصر، فتلقَّاه صلاحُ الدين من بِلْبِيس وخدمه، وقدَّم له المال والخيل والتُّحف، وأقام على أحسن حال، وفعل ما ضمن لنور الدين.

وكان للعاضد خادمٌ يقال له مؤتمن الخلافة، وكان مُقَدَّم السُّودان والخدم، والمشار إليه في القَصْر، فأمر بقتال الغُزِّ، واتَّفق العسكر المِصْري مع الخادم وثاروا على الغُزِّ، فقتلوا منهم جماعةً، فركب صلاح الدِّين وشمس الدولة، ودخلا إلى باب القصر، وأبلى شمس الدولة بلاءً حسناً، وقتل الخادمَ وجماعةً من السودان، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين يتعتَّب عليه، ويقول: فأين أمانتُكم؟ هذا الخادم جاهل، فَعَلَ ما فعل بغير أمرنا. فقال صلاحُ الدين: نحن على الأَيمان والعهود ما نتغير، وما قتلنا إلا مَنْ قَصَدَ قتلنا.

وفيها توفي [صاحب دمشق][١]

أبق بن محمّد[٢]

ابن بوري بن أتابك طُغْتكين؛ مجير الدِّين، وهو آخر ولد طغتكين، وكان لطغتكين تاجُ الملوك بوري، فولد بوري إسماعيل ومحمود ومحمد، ولما ماتَ بوري ملك بعده ولده إسماعيل، فَقُتِلَ لفساده، وولي بعده أخوه محمود. فقتل، فولي بعده أخوه محمد، فمات، فولي بعده ابنه مجير الدين أبق بن محمد، ومات ببغداد، ودفن بداره التي عند النِّظامية، وبلغ نور الدين، فقعَدَ له في العزاء، [وقد ذكرنا سيرته][٣].

حميد بن مالك[٤]

ابن مُغْيث بن نَصْر بن مُنْقِذ، أبو الغنائم الكِناني.

ولد بشَيزر سنة إحدى وتسعين وأربع مئة، ونشأ بها، ثم انتقل عنها وسكن دمشق مُدَّةً، وكان قارئاً للقرآن، فاضلاً عفيفاً أديباً، قال في وصف دمشق: [من البسيط]

ما بعد جِلِّقَ للمُرْتادِ منزلةٌ ... ولا كسُكَّانها في الأرض سُكَّانُ
فكلُّها لمجال الطَّرْفِ مُنْتَزَهٌ ... وكلُّهم لصروف الدَّهْرِ أقرانُ
وهم وإنْ بَعُدُوا مني بِنِسْبتهم ... إذا بَلَوْتُهُمُ بالوُدِّ إخوانُ

ومات أخوه يحيى فرثاه، وقال: [من الطويل]

يذكِّرُني يحيى الرِّماح شوارعاً ... وبيض المواضي جُرِّدَتْ للوقائعِ
فأقسمُ ما رؤياه في العين بهجةً ... بأحسنَ مِنْ أوصافِهِ في المسامعِ

وكانت وفاته بحلب ليلة نصف شعبان.

---

(١) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «وفيات الأعيان»: ٥/ ١٨٨-١٨٩ ، و«الروضتين»: ١/ ٣٠٧ ، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٦٥-٣٦٦ و«العبر» للذهبي: ٤/ ١٨٥-١٨٦ ، و«الوافي بالوفيات»: ٦/ ١٨٨ .

(٣) مابين حاصرتين من (م) و(ش)، وانظر حوادث سنة (٥٤٩هـ).

(٤) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر»: ٥/ ٣٥٦ ، و«معجم الأدباء»: ١١/ ١٦-١٨ ، و«الوافي بالوفيات»: ١٣/ ٢٠٢ .

سَعْد الله بن نَصْر[١]

ابن سعيد، أبو الحسن ابن الدَّجاجي، الواعظ الحنبلي البغدادي.

ولد في رجب سنة ثمانين وأربع مئة، وتفقَّه وناظر، وكان حلو الإيراد، كثير المطالعة، فصيحاً، خاف من الخليفة لحادثٍ نزل به، قال: فرأيت في المنام قائلاً يقول: [من الكامل]

ادفعْ بصَبْرِكَ حادثَ الأيَّامِ ... وتَرَجَّ لُطْفَ الواحدِ العَلَّامِ
لا تأيسنَّ وإنْ تضايق كَرْبُها ... ورماكَ رَيْبُ صُرُوفها بسِهامِ
فله تعالى بين ذلك فَرْجةٌ ... تخفى على الأبصار والأوهام
كم مَنْ نجا مِن بين أطراف القَنا ... وفريسةٍ سَلِمتْ من الضِّرْغامِ

وسئل عن أخبار الصِّفات، فقال: لا تتعرض لها يا عديم، وعليك بالرِّضا والتسليم، وأنشد: [من الطويل]

أبى العاتبُ الغضبانُ يا نفس أنْ يرضى ... وأنتِ التي صَيَّرْتِ طاعته فَرْضا
فلا تهجري من لا تطيقين هَجْرَهُ ... وإنْ هَمَّ بالهِجْرانِ خَدَّك والأَرْضا

وكانت وفاته في شعبان، ودفن عند رباط الزَّوْزني، ثم نُبِشَ بعد خمسة أيام، ونقل إلى مقابر الإمام أحمد رحمة الله عليه، وكان ديناً عفيفاً ثقة.

شاور بن مجير السَّعْدِي

وزير الدِّيار المِصْرية [وقد ذكرنا وقائعه إلى هذه السنة، و[٢]] كان جَبَّاراً لا ينظر في عاقبة، سفَّاكاً للدِّماء، ممدَّحاً، [وقد مدحه عمارة اليمني الشاعر بقصائد.

---

(١) له ترجمة في «الأنساب»: ٤/ ٢٩٤ ، «المنتظم» ١٠/ ٢٢٨ ، «معرفة القراء الكبار»: ٢/ ١٠١٢-١٠١٣ ، «الوافي بالوفيات»: ١٥/ ١٨٦-١٨٧ ، «فوات الوفيات»: ٢/ ٤٦ ، «البداية والنهاية» وفيات سنة (٥٦٤هـ)، «ذيل طبقات الحنابلة»: ١/ ٣٠٢-٣٠٥ ، «غاية النهاية»: ١/ ٣٠٣ ، «المقصد الأرشد»: ١/ ٤٣٠-٤٣١ ، «شذرات الذهب»: ٤/ ٢١٢-٢١٣ .

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش)، وقد سلفت أخباره في هذا الكتاب، وانظر أخباره كذلك في «كتاب الروضتين»، و«وفيات الأعيان»: ٢/ ٤٣٩-٤٤٨ .

ذكر مقتله: قد ذكرنا أنه عزم على عمل دعوة لأسد الدين والأمراء، ثم يقتلهم، وأن ابنه الكامل نهاه،[١]] واختلفوا في كيفية مقتله على أقوال:

أحدها أنَّ الأمراء اتفقوا على قتله لما علموا بمكاتبته الإفرنج، وأَنَّ أسد الدّين تمارض، وكان شاور يخرج إليه كل يوم، والطَّبْل والبوق يضرب بين يديه على عادة وزراء مصر، فجاء ليعودَ أسدَ الدين، فقتلوه.

و[القول][١] الثاني أن صلاح الدِّين وجُرْديك اتَّفقا على قَتْله، وأخبرا أسد الدين، فنهاهما، وقال: لا تفعلا، فنحن في بلاده ومعه عسكرٌ عظيم. فسكتا، واتفق أنَّ أسد الدين ركب إلى زيارة الشَّافعي رحمة الله عليه، فأقام عنده، وجاء شاور على العادة إلى أسد الدين، فالتقاه صلاحُ الدين وجُرْديك، وقالا: هو في الزّيارة، انزل. فامتنع، فجذباه، فوقع إلى الأرض، فقتلاه.

و[القول][١] الثالث أنهما لما جذباه لم يمكنهما قتله بغيرِ أمر أسد الدِّين، وسحبه الغِلْمان إلى الخيمة، وانهزمَ أصحابه إلى القاهرة ليجيِّشوا عليهم، وعلم أسدُ الدين، فعاد مُسْرعاً، وجاء رسولٌ من العاضد برقعة يطلبُ من أسد الدِّين رأسَ شاور، وتتابعتِ الرُّسُل، وكان أسد الدين قد بعث إلى شاور مع الفقيه عيسى يقول: لك في رقبتي أيمان، وأنا خائف عليك من الذي عندي، فلا تجئ. فلم يلتفت، وجاء على العادة، فجذبوه، وألقوه عن فرسه، وأدخله جُرْديك إلى الخيمة، وحَزَّ رأسه، فلما عاد أسد الدين استرجع، وبعث برأسه إلى العاضد، فَسُرَّ به، ودعا العاضد ولدَ شاور الكامل، فقتله في الدِّهليز، وقتل أخاه، واستوزر أسد الدِّين، وذلك في ربيع الآخر[٢].

شِيرْكُوه أسد الدين[٣]

[عم صلاح الدين][١].

أقام في الوِزارة شهرين وأياماً، لأنه وَزَرَ في سابع عشر ربيع الآخر، وتوفي فجأة يوم السبت ثاني عشر جُمادى الآخرة، [وكانت وزارته شهرين وخمسة أيام][١]، وكان كثير الأكل للحوم

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (م) و(ش): واستوزر أسد الدين على ما ذكرنا، وقتل شاور في ربيع الآخر.

(٣) سلفت أخباره في هذا الكتاب، وانظر أخباره كذلك في «الروضتين»، وفي «وفيات الأعيان»: ٢/ ٤٧٩-٤٨١.

الغليظة، فكانت تتواتر عليه التُّخَم والخوانيق، فاعتراه خانوقٌ عظيم، فقتله، ودُفِنَ بظاهر القاهرة إلى أن مات أخوه نجم الدِّين أيوب، فحملا جميعاً إلى مدينة النَّبيِّ ﷺ، فدفنا في رباطيهما، وكان قد أوصى إلى ابنِ أخيه صلاح الدين، فاختلفَ الأُمراء عليه، منهم عز الدين الياروقي رأس الأتراك، وسيف الدين [علي بن أحمد الهكاري][1] المشطوب ملك الأكراد، وشهاب الدِّين محمود صاحب حارم؛ وهو خال صلاح الدين، وجماعة، وكلُّ واحدٍ منهم رام أن يكونَ له الأمر، فبادر العاضد، واستدعى صلاحَ الدين، وخَلَعَ عليه في الإيوان خِلْعة الوِزارة، وكتب عهده [كما فعل بأسد الدين][2]، ولقبه الملك النَّاصر ـ وقيل: إنما لقبه المستضيء بعد ذلك ـ وشَرَعَ الفقيه عيسى في تفريق البعض [عن البعض][2]، وأصلح الأمور لصلاح الدِّين، وبَذَلَ صلاحُ الدِّين الأموال، وأحسن إلى الجميع، فأطاعوه، وأقام نائباً عن نور الدِّين، يُدْعى لنور الدين على المنابر بعد العاضد، ولصلاح الدين بعدهما.

وذكر ابنُ عساكر أسدَ الدِّين، فقال: ولي دمشق مُدَّة، وقام بحرب الفرنج، وفتح حُصُوناً كثيرة، وكان شجاعاً مقداماً، صارماً، مهيباً، وحَجَّ سنة خمسٍ وخمسين [وخمس مئة، وذكر فتوح مصر[3].

انتهت ترجمة أسد الدين، والحمد لله وحده، وصلى على أشرف خلقه محمد، ﷺ][2].

عبد الخالق بن أسد[4]

ابن ثابت، أبو محمَّد الدِّمَشْقي.

كان عارفاً بالحديث، وتفقه على مذهب أبي حنيفة، ودرَّس بالصَّادرية بدمشق، وكان مُفْتياً، وكانت وفاته بدمشق، ومن شِعْره: [من مجزوء الكامل]

قال العواذِلُ ما اسم مَنْ ... أَضْنى فُؤادك قلتُ: أَحمَدْ
قالوا أَتَحْمَدُهُ وقد ... أضنى فؤادك قلت: أَحْمَدْ

(١) في (م) و(ش): أحمد بن علي الهكاري المشطوب، وهو قلب، والصواب ما هو مثبت.
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٣) «تاريخ ابن عساكر»: ٨/ ١٧٠-١٧١.
(٤) له ترجمة في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤٩٧، و«العبر»: ٤/ ١٨٧، و«المختصر المحتاج إليه»: ٣/ ٥٤، و«الجواهر المضية»: ٢/ ٣٦٨-٣٧٠، وفيه توفي سنة (٥٨٣هـ) وقد انفرد بذلك، و«تاج التراجم»: ١٣٣-١٣٤، و«الطبقات السنية»: ٤/ ٢٧٤-٢٧٥، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢١٢، و«الدارس»: ١/ ٥٣٨، و«النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٨١.